هل شهر رمضان للذنوب والعصيان؟!

قضاء الوقت:

ليلاً ترى بعضهم صافين أقدامهم، أهي لتلاوة القرآن؟ كلا إنها لمشاهدة التلفاز للتنقل من قناة إلى قناة، ومن مسلسل إلى مسلسل، حتى ينتهي الليل وهم في عبادة التلفاز يستلهمون تقوى ذاك الفنان أو قيام هذه الفنانة!! أو أن ترى لهم في الطريق تنقلات ونظرات في المارة من النساء والرجال يشخصون أطرافهم ويحددون هوياتهم.

أما النهار فهم سعداء بالفراش لا الصلاة الوسطى تناديهم ولا المسجد يعرف لهم طريقاً ، متى ما استيقظوا استيقظوا؛ عند الغروب أو بعده أو قبله، لا يتحسسون جوع أحد ولا عطش فقير.

الأكل والشرب:

فيه ما لذّ وطاب وما لم تنظر إليه عين ويتلذذ به لسان، إنه شهر الطعام والشراب!! فيه تعمل أشهى المأكولات ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه، فشهر رمضان جنة الطعام، فيه فواكه كثيرة ولحوم مما تشتهي الأنفس (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)، والشراب (فيه شراب مختلف ألوانه).

ما لا تراه في بقية الشهور تراه في شهر التبذير والإسراف!! الذي تمتلئ فيه بطون حاويات النفايات وتكاد تصاب بالتخمة من كثرة ما تمتلئ منه في اليوم الواحد.

التسكع في الأسواق :

في شهر رمضان يزداد التسكع في الأسواق لشراء الملابس الفاخرة والحلي الجملية، فلا الحسينيات -الخاوية على عروشها- لها نصيب منهم، ولا المجالس والمنتديات الثقافية فيها مكان لهم، بل هي الأسواق التي يأمرنا الشيطان بأن نأخذ زينتنا عندها: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ الحديد: ٢٠

العبادة في شهر العبادة:

ما يقام به في بقية الشهور عند بعضهم لا يقام به في شهر رمضان، فمثلا:

نوافل المغرب والعشاء عند كثير من أئمة الجماعة ليس لها نصيب في شهر العبادة بل هي في طيات الكتمان والنسيان، بل لا يجرؤ أن يفكر في أن يصليها.

وأما صلاة الظهر مثلا فالأسف كل الأسف؛ ليس بعض الناس هم من لا يحضرون المسجد في وقت الظهيرة، بل حتى بعض أئمة الجماعة فإمام الجماعة في الظهر في إجازة والناس منه في راحة.

وأما صلاة الفجر فالصلاة في وقتها، وكراهة النوم حتى طلوع الشمس من أهم مستحبات شهر رمضان عند الشباب، لإكمال سهر النهار، ثم النوم حتى وقت الفطور، فالنائم إذا استيقظ لتناول وجبة الإفطار صلى صلاة الظهرين مشتركة مع صلاة العشاءين والنائم معذور حتى يستيقظ!!

انقلاب الصورة :

للأسف أن هذه الصورة هي المنتشرة، والمفترض أن تتغير هذه الصورة إلى ما هو المفترض، حيث أنه شهر الدعاء والعبادة وقراءة القرآن وقد جاء عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - في آخر جمعة من شهر شعبان - : (أيها الناس! إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات...

هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب.

فسلوا الله ربكم بنيات صادقة، وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر ...).

إن شهر رمضان شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله عز وجل، وجدير بالضيف أن يتحلى بآداب الضيافة، ولا تكون الآداب صحيحة إلا إذا جاءت بقدر المضيف ونحن نعلم أي مضيف عظيم حللنا بضيافته.

فلننظر ما هي آداب الضيافة في هذا الشهر الكريم، ماذا يجب علينا أن نعمل فيه لنكون في المستوى اللائق، ولكي نُسجل في قائمة الضيوف الذين أحسنوا الآداب؟

لكي نكون كذلك لابد من معرفة حقيقة هذا الشهر، وما هي المميزات التي يتفرد بها عن سائر الشهور.

ليلة القدر شرف لشهر رمضان:

يكفي قيمة لهذا الشهر الفضيل، أن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهي التي يقدر فيها ما سوف يجري على البشرية جمعاء، إلى الشهر الكريم الذي بعده.

يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

مميزات شهر رمضان:

مع أن لشهر رمضان المبارك مميزات كثيرة على سائر الشهور ، إلا أن هنالك أربع مميزات يمكن وضعها في إطار رسالة هذا الشهر الفضيل ، ذلك لأن لهذا الشهر الفضيل رسالة كما أن شخصيته خاصة إذا عرفناها عرفنا واجبنا فيه ، ومسؤوليتنا تجاهه ومنهجنا في لياليه وأيامه، وهي على النحو التالي:

أولاً : السمو الروحي:

فهو يعطي تمايزاً للروح على الجسد ، وللقيم على المادة ، ولذلك يجوع الإنسان فيه ويعطش ، بينما روحه تحلّق في آفاق واسعة من الاتصال باﷲ ، والتغذية بالمضامين الحضارية لرسالاته لأهل الأرض .

ألا ترى ... أن انشداداً خاصاً – تجاه اﷲ – يعتريك حينما يهاجم الجوع والعطش معدتك ؟! فكيف إذا كان الجوع والعطش من أجله؟

إنك – حينها – مهيأ للذوبان في رسالته .. هذا تمايز لابد من معرفته والتفاعل معه . يقول الإمام علي عليه السلام كما في نهج البلاغة: (ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات ، تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم ، وتخفيضاً لقلوبهم ..)

ثانياً: الانعتاق من الدنيا:

فالمسلم على مدار السنة ملاحق من الدنيا ، تلاحقه في بطنه وحاجياته المادية وغيرها ، أما في هذا الشهر الكريم ، فإن الدنيا تركن جانباً – هذا التعامل الصحيح معها – ويفسح المجال للآخرة لتأخذ دورها في توجيه الإنسان الوجهة السليمة ، فالعطش والجوع ، والشدة والبلاء فيه ، إنما تذكر بشدة أكبر ، وجوع وعطش أظمأ ، إنه عطش وجوع وشدة يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى اﷲ بقلب سليم ، يقول رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وآله وسلم في خطبته – في آخر جمعة من شهر شعبان -: (فاذكروا بجوعكم وعطشكم جوع يوم القيامة وعطشه).

ثالثاً: تلخيص عام في ليلة:

فإذا كان اﷲ سبحانه ، يقدر للإنسان في ليلة القدر ما الذي سيجري عليه في عام كامل ، فجدير بالإنسان أن يجمّع كل قواه لهذه الليلة ، ليطلب من اﷲ تعالى ما الذي يريد أن يكون عليه ، من سلامة وعافية ، وحمل رسالة اﷲ لخلقه ، وتصحيح نيته ، وسلامة قلبه وطهارة عمله ، وكسب الحلال فيه .. والانطلاق في الحياة بما يرضي اﷲ في الدنيا والآخرة .

رابعاً : تحسس آلام الآخرين :

لا يريد الإسلام المسلم فرداً ، إنما يريده أمة ، واختلاف الإنسان الفرد عن الإنسان الأمة إنما هو في أن الأول لا يعرف إلا نفسه ، ولا يسعى إلا وراء رزقه وراحته ، بينما الثاني يرى سعادته جزءاً لا يتجزأ من سعادة الآخرين ، ورزقه لا يكون مساغاً إلا إذا أمن رزق الآخرين عن النهب والسرقة من قبل أصحاب القوة والسلطة ، ولذلك لا يستكبر دفع نفسه في لهوات الحرب دفاعاً عن نقمة المحرومين، وحرية المستضعفين.

وهذا الشهر الكريم محطة يتحسس المسلم فيها آلام الآخرين ، فهو بجوعه خلال هذا الشهر يتذكر الذين يجوعون في أيام السنة ، من الفقراء والمحرومين الذين يجوعون دائماً ويعطشون ، فقد سئل الإمام الحسين عليه السلام : لم افترض ا عز وجل على عبده الصوم؟ فقال عليه السلام : (ليجد الغني مس الجوع ، فيعود بالفضل على المسكين).

كانت تلك أربع مميزات رئيسة لهذا الشهر الفضيل ، وجدير بكل مسلم أن يستوعب عملية الصيام من خلالها ، وأن ينظر للجوع والعطش والامتناع عن اللذات المؤقتة من منظارها ، حتى لا يكون ممن عناهم الحديث الشريف : (كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش) .

برنامج الفرد :

وهنا لابد من التطرق إلى البرنامج الرسالي للفرد المسلم ، وكيف ينبغي أن يكون في شهر رمضان ... لنرى ما هي نقاط برنامج الإنسان المسلم كفرد ، والذي يستطيع به أن يتفاعل مع هذا الشهر الكريم ، وأن يحلق به في سماء الرحمة الإلهية:

أولاً : قبل كل شيء لابد من برمجة الوقت من جديد، وبرمجة الحياة في هذا الشهر معه من جديد؛ حتى لا يسمح المسلم فيه لأية لحظة من حياته أن تذهب أدراج الفراغ دونما شغل أو عمل. وللأسف إن كثيراً منا، تنصرم أوقاته في مجالس البطالين، وفي الأعمال والكلام غير المهدوف أو غير المسؤول، أو وراء الملهيات التي أعدها أعداء الإسلام لأبنائنا لينشغلوا بها عن أهدافهم المقدسة.

والمثل المعروف يقول: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

ويقول الشاعر الشيخ حسن الدمستاني رحمة الله عليه:

أنفاس عمرك أثمان الجنان فلا تشري بها لهباً في الحشر يشتعل

فأنت لكي تجعل حياتك مملوءة بالعمل، تحتاج إلى تقسيم وقتك على أعمال تقوم بها، وإنجازات تحققها -فمثلاً- لتعين لنفسك وقتاً للقراءة، وآخر تمضيه في زيارة اجتماعية، وآخر لمتابعة الأخبار المحلية والعالمية.. وأعمال أخرى تتقدم من خلالها خطوات في الفهم والوعي والإدراك .

وهذا هو شهر رمضان المبارك، لا تجعل أيامه تقطعك، بل اقطعها بالبرامج الرسالية، حدد لنفسك كتاباً إسلامياً تقرؤه وعملاً إسلامياً هاماً تقوم به، ورسالة تؤديها.. وهكذا.

ثانياً : لنلتصق بالقرآن الكريم، ولنغير علاقتنا به.. لنتقدم خطوة إليه لكي يتقدم إلينا خطوات.

ولذا لابد من الالتزام بتلاوة القرآن الكريم كل يوم، وختمه ولو مرة واحدة في هذا الشهر الكريم، فإنه إذا كان لكل شيء ربيع، فإن ربيع القرآن الكريم هو هذا الشهر الكريم. يقول الإمام الباقر عليه السلام: (لكل شيء ربيع وربيع القرآن هو شهر رمضان) .

وإذا كان هذا الشهر ربيع القرآن ، فلابد أن ينمو القرآن في داخلنا بعدد لحظات الشهر، وعدد آي القرآن، فإن ثواب قراءة آية واحدة فيه تعادل ثواب قراءة القرآن في سواه، وهذا قد يعني أن بكل آية تتلى في هذا الشهر الفضيل ينمو بداخلنا مقدار ما يعادل نموه كله بداخلنا في سواه من الشهور.

إذاً.. لنعطي القرآن أهمية خاصة في هذا الشهر الفضيل، ولا نقتصر فيه على التلاوة فحسب، بل لابد من التدبر فيه، وقراءة تفسيره وحفظ بعض سوره.

ثالثاً: تغيير العادات السيئة، خاصة الخُلُقية منها. جاء في الحديث الشريف: (إذا صمت ، فليصم سمعك وبصرك ، ويدك).

فلا يكفي أن يصوم الإنسان عن الطعام والشراب فقط، بل لابد أن يصوم كله، لسانه وعيناه، وأذناه ويداه، ورجلاه، وكل شعرة في جسده، بل وحتى دقات قلبه، وخلجات ضميره، ورجرجة نبضه.

وهذا يعني أن يلبس لباس الصالحين، وأن يتجلبب بجلباب الصائمين، وأن لا يسمح لرجليه أن تسوقانه إلى أماكن غير جيدة، ولا للسانه بتلفظ الكلمات البذيئة ولا لأذنيه بالاستماع إلى اللغو والغيبة، ولا لعينيه أن تنظر إلى ما حرم الله عليها. يقول الإمام علي عليه السلام: (صيام القلب عن الفكر في الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام).

ويقول عليه السلام: (صوم القلب خير من صيام اللسان ، وصيام اللسان خير من صيام البطن).

ولذا لابد أن نغير عاداتنا وتقاليدنا خاصة فيما يرتبط بالأخلاق في هذا الشهر، فإذا كان الواحد منا مثلاً يستعمل بعض الكلمات البذيئة، أو كان قد تعود على الكذب والنميمة ، فليحاول أن يغير ذلك في نفسه ، وإذا كان قد تعود على قطع الرحم فليصل رحمه في هذا الشهر الكريم، وإذا كان قد تعود على النميمة والتفرقة بين الناس فليغير هذه العادة.

رابعاً : الحضور في مجالس تلاوة القرآن الكريم والنشاطات الدينية:

من الجيد أن يتلو الإنسان القرآن في بيته، ولكن الأفضل أن يتلوه مع الآخرين، لأن هذا عمل جماعي (ويد الله مع الجماعة) كما يقول الحديث الشريف، بل ويفضل أن تكون قراءة القرآن في هذا الشهر جماعة في المسجد مثلاً.

وإذا كنت تؤدي عملاً خيرياً واحداً أو تشارك في مشروع خيري كل يوم، فليكن لك عملان تؤديهما خلال أيام شهر رمضان، وهكذا....